

جامعة ديالى
كلية التربية الاساسية

بحث بعنوان

الاشكالية الابستمولوجية في الفكر العربي المعاصر

م. داليا حسين يحيى

الاستاذ الدكتور

عبدالرزاق جدوع محمد

٢٠١٦م

مقدمة

يعاني الفكر العربي المعاصر من حالة انغلاق باستثناء بعض المفكرين وجلهم من المغرب العربي، وهم مع ذلك قلة قليلة استطاعت ان تعقد الصلة بين تراث هذا الفكر من منظوره الانساني من جهة ، والفكر الغربي الاوربي من منظوره الحضاري والانساني من جهة اخرى، كما فعل اجدادهم في القرون الوسطى عندما تمثلوا التراث اليوناني في عهد المأمون فنظروا وابدعوا والفوا وصنفوا ، رغم تعرض بعضهم (القدماء منهم والمحدثين للاضطهاد الفكري والجسدي احيانا) ، فالفكر العربي اذن يعاني من ازمة الانغلاق المعرفي وغلق باب الحوار مع الذات اولا ومع الاخر ثانيا ، ومواجهة بل مطاردة اي تجربة انسانية /عقلانية في الماضي والحاضر كما حدث مع المعتزلة وواد هذا البزوغ الفكري والعقلي في مهده بحجة المحافظة على العقيدة القويمة وصحيح الدين ، فطمس هذا التيار الفكري الوليد وانتصر ازاءه التيار الاصولي في نهاية الامر ، فسالت دماء ودماء في سبيل هذا الانتصار، وما حدث في الماضي من قطيعة يحدث الآن، فأى لقاء حضاري يحصل مع الاخر يواجه بالهجوم بزعم الحفاظ على الهوية والتمسك بأهداب الخصوصية الثقافية رغم ان بعضها اصبح لا يناسب العصر .

على اي حال ماحدث في مجتمعنا في الماضي والحاضر قد حدث مع الغرب الاوربي ، ولكن الفارق ان الغرب ومنذ عصر النهضة في القرن السادس عشر راح يبذل جهودا جبارة في تحرير الفكر من هيمنة الفكر الايديولوجي الاصولي ،من اجل تكوين معرفة وضعية تجريبية محسوسة قائمة على البرهان والعيان لا على العرفان والبيان، وكلما تقدمت العلوم الطبيعية كالرياضيات والفلك والفيزياء في سبر غور الطبيعة وتفسير الواقع الموضوعي راحت العلوم النظرية واللاهوتية تعاني الاهمال وربما الانحسار ، بوصفها علوما ذاتية وغيبية واستمر هذا التوجه بالصعود حتى وصوله الى القرن التاسع عشر اي الى النزعة العولمية الوضعية المتطرفة اي (عبادة العلم) والظن بانه قادر على حل كل شيء وليس فقط تفسير قوانين الطبيعة، وقد ادى ذلك الى ازاحة الدين بعد ان كان مصدرا للحقيقة العليا التي لا خلاف حولها طيلة قرون واحلال العلم الطبيعي محلها ، ثم زادت حدة هذا التوجه عبر النجاحات التي حققتها الحضارة التقنية بكل اشكالها وصورها في القرن العشرين التي اراحت الانسان من الجهود البدنية وحققت له الرفاه المنشود ، فكيف اذن نريده لا يحب العلم ويهيم به بل ويعبده وهكذا اصبح العلم الحديث مضادا للعلم القديم. ونتج عن ذلك مشاكل في المجتمع الاوربي ابرزها البحث عن الجوانب الروحية التي تعيد له توازنه وتخفف من قلقه واضطرابه .

جرى كل هذا التطور والعالم العربي يغط في نوم عميق ولم يفق من نومه الا بسماعه اصوات مدافع نابليون وهي تدك اسوار القاهرة ، عندها تنبه العرب انهم في عزلة مع تراثهم الكلاسيكي الانساني ومع الحداثة الاوربية المعاصرة ، وما منعهم من الاتصال الحضاري مع الغرب الا انغماسهم في الاطر الايديولوجية التي تعد اي اتصال بالغرب يهدد الهوية ويهدد الدين والعادات والتقاليد فأنشأوا من اجل ذلك مؤتمرات وندوات تندد بالغرب وتتهمه بالغزو الثقافي ، علما ان المجتمع القوي لا يخاف الغزو ولا يحسب له حساب

،المجتمعات الاخرى غير العربية اخذت باسباب الحضارة مع تمسكها بموروثها الديني والثقافي فانجزت وابدعت ونهضت كما هو الحال في اليابان وكوريا وبقية دول النمور .

اذن نحتاج وخاصة مشرقنا العربي الى ادماج مجالات معرفية تحليلية ونقدية في نظامه الفكري والمعرفي وخاصة الاستمولوجيا ، ذلك ان الفعل الاستمولوجي النقدي يفضي الى انتاج معرفة علمية Production Sceintifique وقد تميز فكرنا في الابتعاد عن الاستمولوجيا ،علما انها من امهات الموضوعات الفلسفية الاكثر حيوية والاشد ارتباطا بالعلم ،بل انها المقياس الذي يسفر عن انتماء البناء الفلسفي الى روح العصر ، فاين نحن من ذلك . مجرد سؤال !!!!!!!

المبحث الأول : تحديد اهمية البحث واهدافه وحدوده ومفاهيمه العلمية .

١- اهمية البحث :

تنبع اهمية البحث الموسوم (الاشكالية الابستمولوجية في الفكر العربي المعاصر) من ان الفكر العربي لايزال يعاني من حالات ارتباك وانغلاق على الذات وبروز تيارات فكرية ايديولوجية تستمد اصولها من القومية تارة ومن الدين تارة اخرى ، والامر الذي ادى به الى هذه النتيجة هو حالة التخبط والفوضى وعدم الاستقرار الذي ادى في نهاية الامر إلى ارتباك في الرؤية وفي الفكر ، ولا نغالي كثيراً اذا ما قلنا ان العالم العربي بدأ متأهباً لحالة الانقسام والتي تتبع حالة الفوضى والارتباك ، وزاد الطين بلة دخول القوى الاقليمية والغربية كطرف هام في النزاع العربي العربي تحت مسميات شتى .

٢- اهداف البحث :

١. التعريف بالابستمولوجيا وصلتها بالفكر العربي .
٢. دراسة معوقات العمل الابستمولوجي في الفكر العربي المعاصر.
٣. لمحة تاريخية عن الجذور التاريخية للابستمولوجيا.
٤. دراسة حالة الصدام وحالة الانغلاق للفكر العربي .
٥. التركيز على سيطرة الايديولوجية على الفكر العربي .

٣- حدود البحث :

ينحصر بحثنا زمنياً في الثاني من شباط العام ٢٠١٦ ، أي زمن الثورات والاضطرابات والحروب التي شهدتها عالمنا العربي ليس على جبهاته الخارجية، فحسب وانما في جبهاته الداخلية ، اما المكان فهو مساحة الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه ، بقى ان نذكر حدوده البشرية ، والتي تتمثل بالمجتمع العربي بما فيه من اقلية وطوائف وقوميات ، تتنازع احياناً وتهدأ احياناً اخرى .

٤- المفاهيم العلمية :

١. الاشكالية :

الاشكالية بمعناها العام والتي تعني عند البعض (المسألية) هي ترجمة للمصطلح الفرنسي **problematique** وهي ليست شيئاً محدداً في الظاهرة الاجتماعية بل هي تعبير عن سياق الظاهرة ومسارها وحركتها لذا فهي ليست شيئاً يمكن حصره بعنصر واحد او حتى عدة عناصر ، وانما تشمل جميع العناصر المكونة للظاهرة الاجتماعية في فاعليتها وحركتها ، فالظاهرة الاجتماعية شيء حي ؛ والشيء الحي في المجال الاجتماعي هو الشيء الذي تحركه

ديناميكية معينة ، وهي لكي تستقيم يجب ان تصدر عن حالة توازن داخلي خاص بالظاهرة ، فهي بمثابة الحدود النظرية العامة والداخلية لمجمل الظاهرة الاجتماعية المدروسة .^(١)

يقول (بيار بورديو) في كتابه (مهنة السوسيولوجي) في كل مرة لم يعِ عالم الاجتماع المسألية التي تتضمنها الاسئلة التي يطرحها ويحرم نفسه من فهم تلك التي يتضمنها مجيئه في اجوبتهم ، فالأجوبة كما الاسئلة تنتج عن وعي معين ، وبالتالي فإنها تحمل مسألية مثلما تحمل الاسئلة مسألية . أذن الاشكالية هي ربط البحث في الاطر النظرية الاجتماعية واستنباط اشكالية مناسبة ، لذا فهي الاساس النظري الذي يقوم عليه البحث ، بمعنى آخر هي الخيط الذي يجمع في البحث افكاراً لامعنى لها في تفرقتها ، ولاتقبل الفهم في تشنتها .

لذا فان بحثنا على سبيل المثال (الاشكالية الابستمولوجية للفكر العربي المعاصر) يفترض ان الاشكالية تطرح نفسها حين نطرح للنقاش مصادر الفكر العربي وقدرته على اعادة انتاج نفسه وطبيعة الثقافة التقليدية والقيم السائدة ومستوى التفكير لدى ابناء المجتمع .

٢. الابستمولوجيا :

في العلوم يسمى بـ (epistemology) ويطلق عليه ايضاً المعرفة او المعرفية او فلسفة العلوم ، فهي علم يدرس كيفية تكوين المفاهيم وتحولها وكيفية تبادلها بين علم وعلم وكيفية تشكل حقل علمي ودراسة الاحكام والقواعد التي بموجبها تنظم المفاهيم. ويتناول فضلاً عن ذلك اهداف العلم وحدوده وصلته ببعضه البعض وفلسفة العلم ليست جزءاً من العلم ذاته، لأن فلسفة العلم تستقل لوحدها لأنها حديث عن ذلك العلم وفلسفة العلم تدرس اسس العلم ومبادئه وظروفه واساليبه ، أما نظرية المعرفة (ابستمولوجي) فهي كلمة مؤلفة من جمع كلمتين episteme بمعنى حديث logos ومعناها علم او نقد أي دراسة العلوم نقدياً .^(٢)

ان مدارس نظرية المعرفة مختلفة فالتجريبيون يردون المعرفة إلى الحواس ، والعقليون يؤكدون ان بعض المبادئ مصدرها العقل لا الخبرة الحسية ، ويقول الواقعيون ان موضوع المعرفة مستقل من الذات العارفة ، ويقول المثاليون ان الموضوع عقلي لأن الذات لاتدرك الا الافكار . وتختلف المذاهب في مدى المعرفة، فمنها ما تقول ان العقل يدرك المعرفة اليقينية ومنها ما يجعل المعرفة اجتماعية ، ومنها ما يجعل معرفة العالم مستحيلاً .

والابستمولوجيا كلمة مركبة من مقطعين هما (ابستمي) ويعني المعرفة و(لوكوس) باليونانية وتعني العلم ، فهي اذن علم المعرفة وهي تدور حول الاسئلة الآتية : ما هي المعرفة ؟ كيف تكتسب ؟ ماذا يعرف الناس ؟ وكيف نعرف اننا نعرف ؟^(٣)

٣- الفكر

(١) عماد ، عبد الغني (د) ، البحث الاجتماعي ، منهجه ومراحله وتقنياته ، جروس برس ، طرابلس - لبنان - ٢٠٠٢ ، ص ٣٩ .

(2) www.qlzakera.eu/music/vetenskapfilosofi10.0106.htm

(٣) الفرمان ، محمد جلوب ، مقدمة في الابستمولوجيا ، تاريخ ومدارس ٦/١١/٢٠١٤ ، منتدى ابن خلدون ، ص ١ .

كلمة فكر حسب معاجم اللغة تعني (اعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول) ، ويقولون فُكر في مشكلة : اعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها . أما التفكير فهو (اعمال الناس لا مكاناتهم العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية ايجاد البدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والسبب بين الاشياء).^(٤) ، فقد يكون المرء عالماً ولا يكون مفكراً أو العكس ، وذلك لأن الميدان الاساسي للعلم هو الالمام بالجزئيات ، اما ميدان الفكر فهو ابصار الكليات .

ويُعرف الفكر ايضاً بأنه ترتيب امور معلومة للوصول إلى المجهول ، ويستخدم في الدراسات المتعلقة بالعقل البشري ، ويشير إلى قدرة العقل على تصحيح الاستنتاجات بشأن ما هو حقيقي أو واقعي ، والمفكر الذي يستخدم العقل والتفكير النقدي والتحليلي بصفة مهنية أو بصفة شخصية يشار اليه باسم المفكر.^(٥)

٤- الفكر العربي المعاصر

الفكر العربي المعاصر ليس فكراً واحداً كما يعتقد أو يتوهم كثير من الدارسين ، وذلك لأن المجتمع العربي قد ورث من التراث العربي الاسلامي تيارات فكرية متعددة بعضها توسع وانتشر على حساب التيارات والاتجاهات الفكرية الأخرى ، ثم زادت الشقة والفجوة بين هذه التيارات مع التقاءه بالحضارة الغربية فأحدث ما يمكن ان نطلق عليه بصدمة الحضارة .

^(٤) بكار ، عبد الكريم (د) الفكر طبيعته واهميته .

<https://Saad.Doat.bakar15htmp.1>.

(5) Davidson , Herbert , AlFarabi , Avicenna, and Averroes , on intellect Oxford University Press , 1999 , P.6 .

المبحث الثاني : لمحة تاريخية عن الاستمولوجيا

النصف الأول من القرن التاسع عشر هو الارهاصات التاريخية الأولى لتداول مفهوم الاستمولوجيا (وليس نظرية المعرفة) في بنية الثقافة الانكلو سكسونية ، وذلك عندما ادخله الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريزر (١٨٦٤-١٨٠٨) وهو استاذ الفلسفة الاخلاقية في جامعة سان اندروز والتي ظل يعمل فيها حتى وفاته ، واشهر مؤلفاته (مقدمة في فلسفة الوعي) وهي مقالات نشرها ما بين عام ١٨٣٨ و ١٨٣٩ في مجلة بلاك وود ، وهو كتاب نقدي للفلسفة لتجاهلهم الوعي في ابحاثهم النفسية ، ومن مؤلفاته (ازمة التأمل الحديث) الذي ظهر عام ١٨٤٤ وكتاب (باركلي) والمثالية الذي صدر عام ١٨٤٢ .

والاستمولوجيا تاريخياً انواعاً متعددة منها الاستمولوجيا الفلسفية (تجربة الوافد اليوناني) والاستمولوجيا الفلسفية (تجربة الوافد العربي) . الاستمولوجيات الحديثة ، وهي مرحلة التأسيس الحقيقي للمعرفة ومن ثم نشوء مذاهب معرفية لها ، وهي كالاتي :-^(٦)

١- الاستمولوجيا الحسية

وهي الاستمولوجيا التجريبية التي تعتمد على الحس او التجربة طريقاً للمعرفة ورائد هذه الاستمولوجية (فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م) وعنوانه (الاورغانون الجديد) أي المنطق الجديد ، عام ١٦٢٠ ، وترجم للانكليزية عام ١٨٦٣ ، والاسم اشارة إلى اورغانون ارسطو . وهذا النظام الجديد يعتمد الاستقراء بدل الاستدلال ، ولهذا يعتقد ان اورغانونه له السلطة العليا على الاورغانون القديم ، ومن بين الفلاسفة الذين ساروا على هذا المنطق توماس هوبز ، الذي قادته نزعته الحسية إلى المادية ، وهو رمز من رموز مؤسسيها ، مع جون لوك ١٦٣٢ ، الذي يعد مؤسس الاستمولوجيا الحديثة ، ثم توجهت الجهود بنزعة جون ستوروات ميل ١٨٠٦ ، الحسية المتطرفة والتي ظهرت في كتابة نظام علم المنطق ١٩٤٣^(٧) .

٢- الاستمولوجيا العقلية

هذا الاتجاه الاستمولوجي يعتمد العقل في الوصول إلى الحقيقة ، وابرز من مثل هذا الاتجاه ديكارت ١٥٩٦ في كتابه تأملات في الفلسفة الأولى ، جاء بعده باروخ اسبينوزا ١٦٣٢ وهو من اكبر الفلاسفة العقلانيين ، وقد تأثر بـ (قليدس) وديكارت وفي اتجاهه ، اراد صياغة استمولوجيته على صورة موديل هندسي في كتابه مبادئ الاخلاق ، ثم بعد ذلك جاء الفيلسوف الالمانى (لايبنتز) ١٦٤٦ وهو فيلسوف وعالم رياضيات ومنطق وهو مكتشف التفاضل والتكامل^(٨) .

٣- الاستمولوجيات النقدية

(6) <http://ebh-Khaldoun.com/article-details.php?article:995:p.1>.

(7) Anthony Kenny , the Rise of modern philosophy . Oxford . 2006 .

(8) Kant , Critick of Pure Reason , Trans by Francis Hay Wood , zed , London , 1848 . p.13.

ابرز من مثل هذا الاتجاه الابستمولوجي هو الفيلسوف الالمانى عمانوئيل كانت ١٧٢٤ ، وهو اخر الفلاسفة المحدثين ، ومن ابرز مؤلفاته نقد العقل الخالص ، وقد انتقد الابستمولوجية التقليدية ، ابستمولوجيا التجريبيين والعقليين ، وهو سعي في اتجاهه إلى المصالحة بين الابستمولوجية التجريبية والابستمولوجية العقلية . وتطلع إلى اصلاح الميتافيزيقا من خلال الابستمولوجيا .^(٩)

٤ - الابستمولوجيات المعاصرة

ما يميز الابستمولوجيات المعاصرة انها تتسم بالتعاون بين العلماء والفلاسفة ، وقد انعكست جهودهما في :

١ - الابستمولوجيا الوضعية المنطقية :

مثل هذه الابستمولوجيا فيتجشتاين ١٨٨٩ في كتابه المعنون (رسالة منطقية-فلسفية) . صدر عام ١٩٢٢ ، وكذلك مورتييز شيك ومن مؤلفات شيك (الابستمولوجيا والفيزياء الحديثة) صدر عام ١٩٢٥ وكتابه (النظرية العامة للمعرفة) ، أذن فالوضعية المنطقية هي مدرسة فلسفية جمعت بين التجريبية والعقلانية ، واستندت الوضعية المنطقية إلى معيار المعنى الذي يعود في اصوله إلى كتابات فيتخشتاين ، فضلاً عن اعتمادها على مبدأ التحقق والذي ظهر في كتابات فيتخشتاين ثم انبرى كارل بوبر لدحض مبدأ التحقق في المجال النظري (معنى القضية) ورأى ان تكون القضية منطوية على التكذيب .^(١٠)

٢ - الابستمولوجيا البراجماتية

برزت البراجماتية كمعرفة حسية تجريبية في نهايات القرن التاسع عشر في النادي الميتافيزيقي ، بين عامي ١٨٧٢ و ١٨٧٤ وكان ضمن النادي وليم جيمس وتشارلز بيرس عام ١٨٤٢ كأحد اعضائه ، قدم بيرس بحثاً بعنوان تشتت الاعتقاد وكيف نوضح افكارنا ، ومنها كانت ولادة البراجماتزم .

واختياره لهذا الاصطلاح لم يكن عفويّاً بل اختياراً مدروساً من الزاوية المعرفية فحكمه براجماتزم جاءت نتيجة تساؤل يدرس ما معنى الفكرة ؟ وما معنى العبارة ؟ ومتى يكون للفكرة معنى ؟ ومتى تكون العبارة صادقة ؟ ومتى يجوز لنا ان نتكلم عن العبارة بوصفها معبرة عن فكرة ما ؟ ومتى لايجوز ؟ وجوابه جاء كالاتي الفكرة هي ما تعمله ، فمعنى الفكرة متصل بالنتائج وكلمة براجماتزم مشتقة من لفظة براكسس التي تدل على الممارسة والفعل ، وهي في اصلها مشتقة من اللفظ اليوناني براجما الذي يدل على الفعل والعمل .^(١١)

بعد هذا الاستعراض التاريخي للمراحل التي مرت بها الابستمولوجيا بدأ من اختراع مفهومها على يد الفيلسوف الاسكتلندي فريزر وانتهاءً بالفلسفة البراجماتية ، هذا التتابع التاريخي يعكس تطوراً في مفهوم الابستمولوجيا ، وتطوراً في الوعي الفلسفي ، النابع من

(9) Kant. Op .cit.pp29-31.

(10) Popper.K.objective.knowledge.London.1972.

(١١) الفرمان ، محمد فرحان ، الخطاب الفلسفي التربوي ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص١٤٥.

ظروف المجتمع وصراعاته الفكرية ، ففي كل مرحلة ولكل عصر تنبع افكار جديدة تضاف إلى المفهوم ، ذلك ان الاستمولوجية تهتم بالمعرفة طبيعتها واصولها وصلتها بالمعارف الاخرى ، فالاستمولوجيا تنزع إلى الفهم اي فهم الاشياء على حقيقتها والفهم يقود بالضرورة إلى كشف الظواهر وما يختبئ خلفها . أذن مفهوم الاستمولوجيا ودورها في تأسيس العلم كان هماً اوروبياً غربياً لكن هذا الهم في تأسيس المعرفة العلمية لم يكن يشغل بالنا في المجتمع العربي الا مؤخراً لأسباب كثيرة وظروف عاشها المجتمع العربي في الماضي ويعيشها في الحاضر .

المبحث الثالث : موقف الفكر العربي من الاستمولوجيا

لا يمكن القول ان الفكر العربي هو فكرياً واحداً في الواقع ، وإنما مجموعة تيارات فكرية لها مرجعيات واصول مختلفة بعضها من التراث العربي الاسلامي وبعضها من الوافد الاجنبي ، ولذا فان الحديث عن الفكر العربي ليس بالأمر اليسير في بحث صغير كالذي بين ايدينا ، ذلك ان كلمة الفكر رغم انها شائعة ومتداولة على الالسن الا انها تحمل في طياتها قدراً لا يستهان به من الغموض والالتباس ومن احتمال تداخل المعاني وتعددتها ، لاسيما اذا ما اخذنا بالحسبان ان بعض التيارات الفكرية آتفة الذكر يغلب عليها الطابع الايديولوجي 'الدوغماني' المتصلب ، لذا فان ادماج مجالات نقدية معرفية تحليلية ضمن نسق هذا الفكر أو التيارات الفكرية ، ليس بالأمر الهين واليسير .

بعض التيارات الفكرية تؤمن بامتلاك الحقيقة المطلقة وتنفي كل ما عداها نفياً تاماً ، ان كان في الاسلوب المعنوي فلا مانع واذا دعا الامر فبالأسلوب المادي ، وبعض التيارات الفكرية كالاشرائية والشيوعية يفكر بهذه الطريقة ، والعالم بنظر هذه التيارات مقسم اما الى مؤمن واما كافر أو مقسم ايضاً الى رأسمالي واشتراكي وبرجوازي ويدخل تحت كلمة رأسمالي أو برجوازي كل ما لا يؤمن به هو . فكانت النتيجة تشويهاً كاملاً لمختلف التيارات التي يموج بها عالمنا المعاصر . وأمر كهذا يضر بنا ضرراً كاملاً فلا بد من التسامح وقبول الآخر والتحاور معه .

لكن مع ذلك فان الفكر المغربي ضمن الفكر العربي والاسلامي ادخل مفاهيم الاستمولوجيا رغم انه لم يكن انتاجاً لمعرفة جديدة ، بل مجرد مداخل لمعرفة قائمة انتجت خارج افقه الفكري ، وحاولت الكتابات التمهيدية لاستمولوجيات الفكر العربي الاسلامي تقريبها بكيفيات مختلفة ، أما عن طريق تعريفها او مقارنتها بمعارف اخرى ، وهذا ما قام به محمد عابد الجابري ، في كتبه من بينها (العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي) ، والاستاذ

١ - الايديولوجيا أو الايديولوجي باليونانية القديمة ايديا،فكرة، و لوغوس،علم، خطاب بالعربية: الأدلوجة، الفكرية،الفكرانية، العقيدة الفكرية هي مجموعة منظمة من الأفكار تشكل رؤية متماسكة شاملة وطريقة لرؤية القضايا والأمر التي تتعلق بالأمور اليومية أو تتعلق بمناحي فلسفية معينة سياسية بشكل خاص. أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تفرضها. والايديولوجيا هي علم الأفكار وأصبحت تطلق الآن على علم الاجتماع السياسي تحديداً ومفهوم الايديولوجيا مفهوم متعدد الاستخدامات والتعريفات؛ فمثلا يعرفه قاموس علم الاجتماع بمفهوم محايد باعتباره نسقا من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية / الاجتماعية للأفراد والجماعات وهي من منظار آخر نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبررها في نفس الوقت.

٢ - الجزمية دوغماتية) أو دوغماتية) هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الايديولوجي، أو موضوع غير مفتوح للنقاش أو للشك. يعود أصل الكلمة إلى اليونانية والتي تعني "الرأي" أو "المعتقد الأوحده". تمثل الاستبدادية والمعصومية والدمغية أو اللادحضية) الزعم بأن قولاً معيناً غير قابل للدحض بتاتا)، والقبول الخانع (من قبل الملنزمين (واللاشكية لب فكرة الدوغماتية. هذه الأفكار تستدعي عادة الانتقاد من قبل المعتدلين والمنفتحين. ولذلك تستخدم كلمة الدوغماتية غالباً للإشارة إلى عقيدة أو مبدأ لديه مشكلة الزعم ب الحقيقة المطلقة كما أن من سمات الدوغماتية هي القطع برأي أو معتقد بغض النظر عن الحقائق أو ما يحصل على أرض الواقع، وهو ما يسمى في اللغة العربية ب "التعسف". تستخدم كلمة دوغماتية، أيضاً، لوصف الرأي الغير مدعوم ببراهين.

محمد وقيدي في كتابه (ما هي الاستمولوجيا) ، وعبد السلام بين عبد العالي ، وسالم يفوت في كتابهما (درس الاستمولوجيا) ، فتحدثوا عن (التحقيق والتقليد والوضعية والسيرورة) . وكان تركيز المؤلفات المذكورة على الوضعية عند اوگست كونت ، والوضعية الجديدة والعقلانية والاستمولوجية التكوينية ، والنزعات التطورية . وكان هذا العارض يعاني حالة الاضطراب لكونها مجهودات فردية ، وقد تحكمت اغلبها بالالتزامات البحثية الاجتهادية ، أي الابحاث الخاصة بالحصول على الشهادات العليا .^(١٢)

وزاد من عزلة الاستمولوجيا كاختيار نقدي تحليلي الحاقها وحصرها بقسم الفلسفة، مما يعني عدم اتصالها بالمجالات العلمية الاخرى امام تحول التخصصات داخل الجامعة إلى عقائد دوغمانية وإلى مجالات حيوية للربح والاستغلال والترقي واخفاء العجز باسوار مقدسة ، لاسيما البحوث الاجتماعية .

^(١٢) همام ، محمد ، لماذا تزاخم العلوم الاسلامية الاستمولوجيا ، صحيفة العالم الجديد ، ٢٠١٥ ، ص ٢ .

المبحث الرابع : لماذا هذا العداء للفلسفة ؟

عانت الفلسفة تاريخياً في المجتمع العربي من اضطهاد وتجريم واتهام اصحابها بالكفر والزندقة في مراحل تاريخية تبدأ بالمعتزلة وتستمر إلى يومنا هذا ، رغم تخصيص اقساماً في الجامعات تهتم بها . وكانت هناك حملات لأهل الحديث على علم الكلام وعلى العلوم التأويلية ، وصراع الغزالي مع الفلاسفة في كتابيه مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة . وغيرها الكثير الكثير من حالات العداء والتوجس من كل فكر فلسفي ، فالاشتغال في العقل (الفكر) حسب تعريفنا السابق ، يؤدي أو يُظن (من وجهة نظر رجال الدين) انه يؤدي إلى زعزعة الايمان القويم ، لهذا تعرض اهل الاعتزال امثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وابي علي وابي هشام (ابنه) والخياط والجاحظ والقاضي عبد الجبار وكذلك الاشاعرة امثال ابي الحسن الاشعري والجويني وابي حامد الغزالي .

اما الآباء المؤسسين للاعتزال فهم معبد الجهمي المؤسس الذي تتلمذ للبخاري واستأذنه رجلاً مسيحياً اسمه (سوسن) أو (سوتر) أو (سنسويه او سيسويه) على اختلاف رسم اسمه بين المؤرخين ، وان هذا الرجل كان نصرانياً فأسلم ، وان معبداً كان يقول بقول النصارى ، وان الحسن البصري كما روى عنه انه قال : اياكم ومعبداً فانه ضال مضل ، وقال آخر : احذروا معبداً فانه كان قديراً^(١٣) ، وهذا الهجوم المتوالي من أئمة المسلمين القدامى انما يعكس تخوفهم الشديد على العقيدة الاسلامية القويمة ، من تلك الاجتهادات المضادة التي بدأ بها معبداً ثم تدفق تيارها من بعده ، ويقال ان هنا عبارة قالها الامام البخاري تقول العبارة ((فشنت القدرية حين فشنت النصارى) ، ولهذا نجد ان بعض الفقهاء يحثون الشباب في نصحهم وتعاليمهم الدينية في عصرنا الحالي من عدم مخالطة النصارى عند سفرهم إلى بلاد الغرب وان اختلطوا بهم فعليهم ان يزايلوهم بالقلوب .^(١٤)

اذن التفلسف او التمنطق او الاتيان بأراء غريبة تشكك في صحيح العقيدة يؤدي لامحالة من وجهة نظر شيوخ الاسلام إلى الكفر والزندقة ولذا كان احمد بن حنبل يحذر دائماً من الفلسفة بقوله (من تمنطق فقد تزندق) ، والملاحظ ان التصفيات الجسدية لعلماء الكلام والمعتزلة بدأت مع بداية الحكم الاموي (القرن الأول الهجري) وكان من ضحايا الحكم الاموي^(١٥) ، غيلان الدمشقي وملخص بدعته هو انه قرر ما يوافق معبداً القائل بالحرية الانسانية خلاف الجبرية التي اصر عليها الامويون ، قتله هشام بن عبد الملك بسبب اقواله .

أما الجعد بن درهم وهو ثالث الآباء المؤسسين لعلم الكلام ، تعرض هو الآخر إلى مضايقات لا آخر لها بسبب اقواله بمسألة خلق القرآن ، فكان يرى ان القرآن مخلوق بمعنى انه تاريخي

(١٣) اي قدرة الإنسان على اختيار افعاله .

(١٤) زيدان ، يوسف (د) ، اللاهوت العربي واصول العنف الديني ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ص١٧٨ - ١٧٠ .

(١٥) والملاحظ ان بداية اي عصر تأسس على عواصف تطيح بمعارضتي الدولة ليتسنى الامر اخيراً للحكم الجديد

ولهذا السبب ثارت عليه ثائرة علماء السنة ، الذين اعتقدوا ان كلام كله صفة الله القديم ، ثم جاء الجهم ابن صفوان الذي يعد برأي المؤرخين وعلى رأسهم الذهبي اسُ الضلالة ورأس الجهمية ، قتل الجعد بن درهم قتله اشد فضاة مما لقيه تلميذه الجهم فقد قتله الامير خالد بن عبدالله القسري ، بجامع واسط بالعراق ، صبيحة عيد الاضحى في الساعة المبكرة التي يذبح فيها المسلمون الخراف بعد انتهائهم من صلاة اول ايام العيد ، وخطبته . كان الجعد قبلها مسجوناً في سجن الامير فاخرجوه مقيداً باغلاله فجر يوم العيد وجاءوا به إلى المسجد الجامع فأجلسوه امام الناس تحت المنبر وفوق المنبر راح الامير خالد القسري يلقي خطبة العيد التي انتهى منها بقوله للحاضرين ((اذهبوا فضحوا تقبل الله منكم فأني مضح بالجعد ابن درهم)) ونزل فاستل سكيناً وذبح الجعد تحت المنبر وسط المصلين والناس ينظرون .^(١٦)

استمر مسلسل محاربة الافكار المعارضة طيلة العصر الاموي وبدايات العصر العباسي ، وفي العصر العباسي خفت حالة التشيخ بسبب اتصال العرب بالحضارات الاخرى ومن بينها الحضارة الفارسية واليونانية من خلال تأسيس دار الحكمة على يد المأمون (٨٣٢ م) وكان تأسيسه تعبيراً ثقافياً عفويّاً عن استحالة الاستعصاء على المؤثرات الثقافية غير الاسلامية فوضعت دار الحكمة بين ايدي المفكرين المسلمين كل التراث الهيليني الكلاسيكي الذي جلبه معهم العلماء الوثنيون الهاريون من اضطهاد الامبراطور جوستيان في القسطنطينية والذين هاجروا بعلمهم ومعارفهم إلى سوريا والعراق وايران خصوصاً إلى مدارس نصيبين وجنديسابور ، وعندما امتد الاسلام في القرنين السابع والثامن الميلاديين إلى هذه البلدان اتصل اتصالاً مباشراً بهذا الميراث الوثني المادي ووجد بعض المسلمين فيه جدة وجاذبية ولم يمض وقت طويل حتى اصبح القرن التاسع الميلادي عصر الترجمة العظيم ، ترجمة الفلسفة الاغريقية وكتب الطب والرياضيات والعلوم الاخرى إلى اللغة العربية ، لكن هذا البروغ العقلي سرعان ما تلاشى ، فقد كان كتاب (الاعتقاد القادري) بداية الضمور والوهن ثم التوقف الذي ابتلى به الفكر الاسلامي بعد عصور ازدهاره حتى اصبحت ملاحقة الحركة العلمية العقلية واهلها ظاهرة مقبولة تبادلها السلطة السياسية وتشجعها، ومن العجب ان يتصاحب ذلك مع اقوال نجم دولة الاسلام وتمزقها ، يروي ابن الاثير في عام ٤٢٠ هـ صلب السلطان محمود بن سبكتكين من الباطنية في الري خلقاً كثيراً وفر المعتزلة إلى خراسان واحرقت كتب الفلسفة^(١٧).

لكن مع ذلك قال التراث العربي الاسلامي ينطوي على اسهامات فكرية يغلب عليها الجانب العقلاني والانساني ، وقد توزعت هذه النزعات الانسانية فنجدها في الادب والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع ، الا انها كانت محدودة التأثير بسبب هيمنة الثقافة التقليدية على المجتمع برمته في الماضي والحاضر ، وقد مثل الاتجاه الانساني كما يعتقد (محمد اركون) ابو حيان التوحيدي ومسكويه ، بل مثله حتى بعض الفلاسفة المناهضين للفلسفة وعلى رأسهم الامام الغزالي ، فلدى هذا الفيلسوف اقوالاً تستحق التقدير ، لكن اقواله اهلته بسبب مبالغته في ابطال دور العقل واطهار دور التوكل والقدر مما مهد السبيل للحركات الصوفية وسيطرتها على

^(١٦) زيدان ، يوسف (د) ، اللاهوت العربي ، مصدر سابق ص ١٧٠ .

^(١٧) رضا ، محمد جواد (د) ، العرب والتربية والحضارة ، ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٧ .

عقول الناس ، كما مثل هذا الاتجاه كثير من الفلاسفة والعلماء العرب وكان من ابرزهم ابن خلدون عالم الاجتماع العربي القائل ((اعمال العقل في الخير)).^(١٨)

ان ما حدث من صراع في المجتمع العربي بين الاصوليين والعقلانيين حدث في اوربا ايضاً ، ومثال ذلك ان مطران باريس ايثيان تامسيه قد اصدر عام ١٢٧٠م فتواه بإدانة افكار الفلاسفة العرب ومتبعيهم من الفلاسفة الفرنسيين ، وكان احد المستهدفين بهذه الادانة (دو برابان) احد الرشديين في السوربون . وقد اضطر للاختباء ثم الهرب إلى ايطاليا حيث مات في ظروف غامضة (ربما مسموماً) وهذا دليل على ان معركة الفكر في اوربا كانت هائلة وان المجتمعات الاوربية^(١٩) لم تتوصل إلى حرية الفكر الا بعد جهد جهيد .

المبحث الخامس : القطيعة الابستمولوجية مع الفكر العربي المعاصر

ان المتتبع لنظام الفكر العربي الذي تبلور في السياق الاسلامي منذ ظهور الاسلام وحتى نهاية الحقبة المبدعة يقع كله ضمن الاطار المعرفي للقرون الوسطى والعصور القديمة اليونانية هذا يعني ان الفكر العربي الاسلامي الذي تشكل عامي ٦١١ و ١٢٥٨ يقع كله في مرحلة ما قبل الحداثة رغم الانتاج الفلسفي المبدع الذي ساد المرحلة المتأثرة بالفكر اليوناني ، لكن الفترة الطويلة الممتدة من القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر قد اهملت دراستها زمن طويلاً ، علماً ان المجتمعات العربية الاسلامية الراهنة ناتجة عنها مباشرة ، وبالتالي فلا يمكن فهم المشاكل الحالية ان لم تفهم تلك الفترة ورغم انتصارات الاتراك العسكرية الا انهم لم يضيفوا شيئاً إلى الفكر . ولم يساهموا في تشكيل الحداثة ، وانما ظلوا على هامش التاريخ مكتفين بقمع الشعوب الاسلامية الاخرى التي تشكل الامبراطورية ، ومكتفين باستغلالها وجبي الضرائب الباهضة منها ، وفي تلك المرحلة التاريخية تمت برمجة كل الازمات التي تعاني منها المجتمعات العربية اليوم .

لقد حصلت في تلك الفترة العثمانية المظلة قطيعتان كبيرتان لايزال يعاني منهما العالم العربي حتى اليوم الاولى داخلية والثانية خارجية .^(٢٠) انقطع الفكر العربي الاسلامي في المرحلة العثمانية عن افضل ما انتجه الفكر الاسلامي في المرحلة الاولى (العباسية) ، اي في القرون الهجرية الستة الاولى من تاريخ الاسلام حتى وفاة ابن رشد في اواخر القرن الثاني عشر ، وهذه الفترة تميزت بالتعددية العقائدية والكوسموبوليتيه العرقية الثقافية والنزعة الانسانية المجروحة (غير المتبلورة بشكل كامل) أما القطيعة الثانية فكانت مع الخارج اي مع اوربا فقد نام الفكر العربي ولم يعد يعرف ماذا يحصل حوله من اكتشافات علمية وتطورات فلسفية ، وعندما استيقظ في بداية القرن التاسع عشر كانت الحداثة قد قطعت اشواطاً بعيدة إلى الامام .

في ظل الارتباك والفوضى التي يعيشها العالم العربي الراهن نجد ان الفكر غير المرتكز على التفكير العقلاني المنظم يعاني هو الاخر من حالة التشنت والانغلاق ، وازاء ذلك يسود التقليد ،

(١٨) اركون ، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ١٢ .

(١٩) صالح ، هاشم ، معارك التنويريين والاصوليين في اوربا ، دار الساقي ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص ١٢-٢٠ .

(٢٠) اركون ، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني ، مصدر سابق ، ص ٢٨٣ .

فنجذ المجتمع يميل إلى استيراد اسوأ ما في الحضارات المتقدمة يأخذ منها مظاهر التحضر لاجوهره ، ويصبح المجتمع تابعاً وعرضة للغزو الثقافي ، واطخر ما يعانيه المجتمع استيراد السلع والقيم الاستهلاكية لا الانتاجية ، وتجاه نزعة التقليد هذه ينشأ نزوع آخر مضاد لا يقل خطراً عن الأول هو الانغلاق والوضعية مع الآخر ، فيرفض كل ما هو ليس من انتاجنا الخاص أو من موروثاتنا على انه (نبت غريب) وفي اجواء هذه القطيعة لايسود الابداع الداخلي بل التقليد الحرفي للنماذج الثقافية المتوارثة .

ان من اهم معوقات الاستمولوجيا في فكرنا العربي والشرقي منه على وجه التحديد الحضور الطاغي للايديولوجيا وتحكمها في مناحي الحياة المتعددة ، مما ادى في النهاية إلى حدوث ليس قطيعة مع الداخل والخارج فحسب وانما انغلاق على الذات والعيش في حالة هلامية غير واضحة المعالم ، ذلك ان الجمود على الافكار بطريقة متصلبة يخلق حالة التعصب والنفور من كل ما هو وافد ، والتعامل مع التراث تعاملأ انتقانياً قائماً على استدعاء القيم المتطرفة والارتكان إلى النصوص التي تلائم توجهاته وميوله الراهنة . لذا فان الفكر المعاصر هو في حقيقة فكر قروسطي ، تمظهر بالحدائثة فقط لكن روحه تنتمي إلى الماضي البعيد ، وإزاء ذلك يبقى هذا الفكر حبيس مجتمعه لعدم قدرته على التواصل مع الآخر .

ان حضور هذا الفكر (القروسطي) في حياتنا الراهنة ادى إلى ازاحة أي فكر عقلاني تنويري ، وملاحقة اصحابه وقد شهدت الساحة الفكرية في المجتمع العربي انتهاكات واغتيالات لبعض فلاسفة ومفكري العالم العربي لاسيما في المغرب العربي، ومثال ذلك المفكر المصري طه حسين وعلي عبدالرزاق وفرج مودة ونصر حامد ابو زيد وسيد محمود القمني ويوسف زيدان ومحمد اركون والجابري وفاطمة المرنيسي والقائمة تطول واتهام هؤلاء بالعلمانية ، والعلمانية تعني ترك الدين أو محاربة عقائد الدين ، في حين ان العلمانية لاعلاقة لها بالعقائد ، لأنها تهتم بالمعاملات (بالتعبير الاسلامي) وليس بالعبادات .

الخلاصة

نخلص من كل ما سبق ان الاستمولوجيا وصلتها بالفكر العربي المعاصر باتت ضرورية وملحة سيما وان هذا الفكر يعاني من هيمنة الفكر الايديولوجي خاصة في مشرقه وهناك ثمة فارق شاسع بين الاستمولوجية التي تعني المعرفة من حيث تحليلها ونقدها ومعرفة اصولها وجدورها وعلاقتها بالمعارف الاخرى . فهي ليست اختصاص محدد في اروقة قسم الفلسفة فحسب وان كانت تنتمي له الا انها دراسة العلم المتخصص دراسة تحليلية نقدية ودليل ذلك ان الدرجات العلمية التي يحصل عليها طلبة الدكتوراه يكتب عليها دكتوراه فلسفة في الاختصاص الفلاني .

لكن ما يعوق الاستمولوجيا في مجتمعاتنا العربية هو صدام التيارات الفكرية الايديولوجية – الدوغمانية فيما بينها ، فكل تيار يحاول طمس معالم التيار الآخر كي تخلو له الساحة . وأمر كهذا يؤدي إلى حالة الانغلاق وغياب النقد والنقاش وتبادل الافكار .

التوصيات

١. ضرورة ادخال المنهج الابستمولوجي في البحوث والدراسات العلمية الرائدة ، فالمعرفة لايمكن لها ان تنمو وتزدهر الا من خلال النقد والتحليل .
٢. الاهتمام باختصاص الفلسفة وتفعيل دوره في المجتمع الاكاديمي اسوة بعلم النفس والارشاد وبقية التخصصات العام .
٣. اجراء بحوث علمية حول موضوع الابستمولوجية اسوة بالدراسات والبحوث الرائدة في المغرب العربي .
٤. اعطاء مساحة من الحرية للدراسات النقدية التحليلية والتفكيكية للنصوص . بغية الوصول إلى المعارف الحقيقية غير المزيفة .